أبراج الماضي

الى وقود مأساتنا ـ عرب فلسطين

« لقد كنت في غفلة من هذا ، فكشفنا عنك غطاءك ، فبصرك اليوم حديد . »
(قرآن كريم ، ق ، ٢٢)

١ ـ الاغنيـة

على صدري تنوح الذكريات :
روافدها تصب زوابعاً ، دون انقطاع ، في شراييني
ويحضن موجها غفوَ الهدير ، وصوت « أسقوني (١) . . »؛
حصاها منه تنفجرُ الصلاةُ
بنبرٍ فيه تحتضرُ الحياة . . .
فيا صدري تعرَّ ، الآنَ ، وآفتحْ هذه الاضلاع في لينٍ .

*

أصدري من سماء ، والجراحُ نجومها فيه ؟
تشد الذكريات ، بكل جرح نجمة ، في ليل ماضيه ؟
تفجر من أصابعها
رياحُ الامس هوجاً ، تنفثُ الاصداء في آفاق واديه ؟
وتنشر غيمها بين النجوم وشائحاً تسقي مراثيه ؟
فمن أبعاد صدري موعد فيه السماء تعانق الارضا ،
وبينهما مرابع موطني تمتد في أحلامها فيضا
تطرز نجمة الميلاد فيها صخرة المعراج ، من أهدابها ،ومضا
فيا دنيا بصدري مسها الله
أفاقت تذرف الفحمات جمراً ، في شراييني ، ضحاياه .

*

على صدري تنوح الذكريات
تسيل دموعها ناراً ، تعانق في ظلوعي سارق النار (٢) ؛
فتبتهل المجامر في خبايا الصدر ، تلقط كل تذكار
تراتيماً تناقلها الرواة
بنبر فيه تحتضر الحياة . . .
فيا صدري دع النيران تحكي يقظة الابعاد للثار :

٢ ـ الحلم

تحط زوارق الاحلام روحي بين أعياد المواسم في ربى داري ،
مرافئها حقول القمح فيها كل سنبلة
منارة كل تيار ؛
خطاي الخضر أرسمها مسالك غضة الاعشاب والغار . .
أمد يدي الى الازهار أقطفها بلا شوك ؛
أرعش الضوء خضب وثبة الازهار بالمسك ؟
براعمها تفتح شهوتي . . . وتثير أهداب السنابل للرياح لترتوي عشقا ؛
لتبعث زهوها نغماً يطير مع الرياح ، وينثني شوقا ؛
فداري قامت الاعياد فيها ترتقي الافقا
تجر حدائق الاهداب جنات ، لتمنحه هداياها ،
وتزرع في مقاصره . . رفوف الزهر الواناً واشباها ـ
تطوق لونه العطري باقات تغني عيد لقياها !
تنقط من نجيع الزهر اثواباً
منجمة ينبّي الافق سراها .
وتنقلني خطاي ، على جناح الشوق ، من ربع الى ربع

---

(١) من أساطير عرب الجاهلية : أن العربي اذا قتل غدرا ، ولم يؤخذ بثاره ، تتحول روحه بعد قبره الى طير يحوم حول القبر صائحا : « أسقوني ! أسقوني . . . ! »

(٢) سارق النار هو بروميثيوس .

تحوط ظلالها اللفاء أقدامي
ترتل رقصة الأضواء بالدمع ؛
ففي داري مواسم خصبة الاعياد تجري تحتها الانهار من نبع !

*

مضت عيناى تلتقطان أطراف الحقول بنظرة الحب ،
وتنقلني خطاي الى حدود المرفأ الخصب
هنالك يفتح بابه الغافي فأعبره
وأزجي الخطو من درب الى درب ؛
واذ أمسيت خلف الباب ، أرسى دفة الاشواق فى قلبي
نظرت .. فلم أصافح غير أشلاء تردت من فم الجدب
بدار ينبت العليق نارا في مبانيها ،
وتصفعها سموم الريح في حنق ، تكوم رملها فيها ؛
ومن ابر الطحالب تنزف النيران السنة
يفح سعيرها الضارى
معاول تحفر الصحراء آباراً من النار
أهيكوبي (٣) تنام على الرمال أسى
وتنمو شعلة في رحمها الهاري ؟
لتولد كتلة حمراء تحرق موسم الاعياد فى داري ؟
فهذي الدار تجرى تحتها الانهار من أجل ،
يصيح هديرهـا :
ـ « يانازحون عن المرابع ، اطرحوا عنكم ،
ثياب الشوق والأمل ! » (٤)

٣ ـ ماذا يقول الفنجان

فأي نبوءة مدت بأضلاعي
مداخل صدقها ؟ فاساقط الحلم
مهامه شقها نهر
كبير ضفتاه الصخر ، ينبع منهما السم .
وتحرسه زوارق تنقل الموتى الى دركاته السفلى ،
دماء ، لونه الظلماء ، في اعراقه النسيان ينمو عشبه رملا ،
يفور أجيجه الطامي ، ويغلي موجه محلا .
وصُفّت في جوانبه
عيون ذات أشرعة ممزقة الرؤى ، ثكلا
تحن الى مرابعها .
أيبقى الحب في آبارها ظلا ؟
عيون تحمل الماضي ، ليوم ، ترتجي في حمله « آلسهلا »
وهبت ، في جناح الليل ، عاصفة
تألقت السماء لها ، والوت وجهها غلا ؟
فألقت للمياه السود أعيننا مجامر رمدت ليلا
تلقتها حراب الماء تذروها ؟
فنامت فى دجى أمواجها ذلا .
أشد بقاعة ، النهر الكبير ، مراسياً لنجاتنا غرقى ؟
فمن أهدابنا استلت بقايا النور ، رشتها
على شطآنها أفقا !
وفي جريانه النهر ـ
يشق طريقه بين الصخور ؟ فيلتظي من هوله الصخر ـ
تلوى حية رقطاء
بين تلاله الجرداء ،
في غضب ، يجاوبه الصدى المر ؟
ويخنق ضفتيه على العيون ... كأن يضيق به المجرى .
ويفتح ضفتيه ، لتلتقي أكوام نور فيهما سكرى ،
تنام على مجاريها ، وتهديها الردى خمرا .
وأعيننا تسير معه ،
ترود مجاهل الامواج ممتقعه .

*

وتنقلنا زوارقنا الى بحر بلجته يجوس الامن غضبانا ؟
أيحمل في الشراعات الممزقة الذهول ، وسره يقتـات أشجانا ؟
أيبعث فوق صفحته الهدوء ، وقلبه يرتج غضبانا ؟
أتشرق شمسه في وجهه ، وضميره يغشى
معين الليل أزمانا ؟
فمد لنا طـريقاً ، في ذراعيك اللتـين تمسحان الامس باللهب !
أأنت خلاصنا ؟... فاكشف جراح الامس للشهب !
أأنت خلاصنا ، ام فيك مسكننا الذي يرتاح للغضب ؟!

٤ ـ الأمل

على صدري تنوح الذكريات :
تشد مغالق الاحلام كي تفتضها بعثاً يجول على مـدى حسي ؛
فتمتزج الدماء بقسوة الاضلاع سرا نام في الشمس :
أأيقاظ يموت به السبات ؟
أموت منه تنبعث الحياة ؟
فيا صدري تبسم موجة شدت رياح الامس عودتها الى القدس !
فصدري من سماء ، والجراح نجومها فيه ،
تشد الذكريات ، بكل جرح نجمة ، في ليل ماضيه ،
تفجر من أصابعها
رياح الامس هوجاً ، تنفث الاصداء في آفاق واديه ،
وتنشر غيمها بين النجوم وشائحا تسقي مراثيه ؛
فمن أبعاد صدري موعد فيه السماء تعانق الارضا
وبينهما مرابع موطني تمتد في احلامها فيضا
تطرز نجمة الميلاد فيها صخرة المعراج ، من اهـدابها ، ومضا .
فيا دنيا بصدري مسها الله
أفاقت تذرف الفحمات جمرا ، في شرايينى ، ضحاياه ،
تطل دموعها نارا تخاصر موجة الاحلام في المقل ؛
ترن سطورها :
ـ « يا نازحون عن المرابع ، احضنوا فيكم ،
ثياب الشوق والامل ! »

خالد علي مصطفى
من جمعية الكتاب والمؤلفين العراقيين

---

(٣) هيكوبي : زوجة بريام ، ملك طروادة ، وام باريس ، الـذي خطف هيلين . حلمت أنها حبلى ، وعندما جاءها المخاض وضعت بدل الطفل ، كتلة من النار ، أحرقت كل طروادة .

(٤) هذا البيت مقتبس من دانتي ، والاصل : « أيها الداخلون ، اطرحوا عنكم كل امل » ؛ وهو من الابيات التي تخيلها الشاعر الايطالي مكتوبة على باب الجحيم .